٦
حلقات قصصية
عيـون المـرْآة
جعلوني بطلاً
محمد
حياه

حلقات قصصية

عيــون المِــرْآة

خدَعتْك عَيناك عندما أوهمتكَ أنك عندما تقف أمام المرْآة ترى بها الحقيقة؛ فالحقيقة قد رأتها عيون المرْآة دون أي تزييفٍ منك؛ فاحذر من تلك العيون؛ فقد تبوح بتلك الحقيقةِ في يومٍ من الأيام.

الحلقة السادسة

جعلونى بطلًا

غرفة نوم صغيرة تمتلئ بأشياء مجسمة على هيئة كائنات عجيبة منها البشرية ومنها الغير بشرية، ولكنها متجمدة في مكانها لا ينبت منها أي حركة، ومن يستطيع أن يجمع كل تلك الأشكال في غرفة واحدة فلا شك عقله ليس بعقل سوي بالمرة، أما عن الكائنات التي تستطيع أن تتحرك بتلك الغرفة فكانوا ثلاثة فقط، الأول هو أنا أجلس مرتعشًا في زاوية الغرفة أختبئ خلف شرشف النافذة أحاول أن أكتم أنفاسي وأصمت صرخات قلبي التي أعلنت فزعها مما يحدث أمامي من مشهد بشع، أما الثاني فكان شيء مفزع مقزز بجسده الضخم الممتلئ بالشعر الاسود الكثيف الذي أبتل بماء عكرة، مما أكسب هذا الشعر لمعة قشعرت بدني كثيرًا، شيء يمتلك عينان غزى السواد بياضهما وأعلن أعتلاء مملكة الظلام بهما، لا تعلم هل تستطيع رؤيتك أم عينان انتحر نور البصر بهما يوم مولد هذا الشيء، فهما لا يتحركان إلا لو تحرك وجهه بالكامل وهذا أعلان ضمني أنه شعر بك وأنك اصبحت على وشك أن تصبح فريسته في غضون ثوان معدودة، اذا كنت تظن أن ما وصفته مخيفًا أو مقززًا بالنسبة لك فأعلم أنك لم تعلم شيء عن الخوف أو التقزز بعد.

ولكي أثبت لك ذلك يكفيك أن ترى أنيابه التي هجرت فمه منذ زمن لتبرز خارجه معلنة استقلالها السافر عنه، أنياب تزينت بالدماء وبقايا الطعام واللعاب، هذا غير ذيله الاحمر

الذي يشبه الأفعى في حركته البطيئة والمريبة، أما أقدامه الأربع فكانت تعلم كيف تمسك أي شيء وتتسلق أي شيء بكل سهولة ويسر، فأنت لن تفلت من قبضتهم اذا اعلن حظك التعس انه يريد ان يدخل في مطاردة غير متكافئة أمام هذا الشيء، فتكون تحت سطوة مخالبه بعد أول ثانيتين من تلك المطاردة الغبية، فالأسلم لك أن تثبت مكانك وتنتظر مصيرك المحتوم ، لأنه ما أن يقبض عليك حتى يبدأ في مص دمك بأنيابه تلك من رقبتك، مثلما يفعل الأن مع ثالثنا بتلك الغرفة، فلقد كان الثالث يمتلك جسد صغير عني بعض الشيء، جسد مسالم لما يحدث معه من افتراس وانتهاك حقوق لأنسانيته التي تلاشت تحت اقدام هذا الشيء المقزز، الذي يصدر صوتًا يدغدغ طبلة اذني يجعلني أريد ان انتزعها من رأسي حتى لا اسمعه، وبالفعل تجرأت أحد خلايا مخي اللعينة وأصدرت أمرًا بان تتحرك يدي لتضرب أذني بغضب بعض الشيء، وكان تأثير تلك الحركة الغبية أن يشعر بي هذا الشيء ويصمت ويخرج أنيابه من رقبة فريسته المسالمة، وهو يلتفت نحوي وتتسع عينه وتشرئب رقبته لأعلى، ثم يبدأ في الوقوف على قدميه الخلفيتين وكأنه يريد ان يكشف اكثر ما سترته تلك الغرفة، ولم ياخذ سوى برهة صغيرة حتى عاد صوته مرة أخرى في هيئة صرخة معلنة عن أكتشافها لفريسة أخرى بالغرفة وهي أنا، عاد ليقف على اقدامه الأربعة ثم توجه نحوي متخطيًا الفريسة الأولى وظل يتقدم نحوي بخطوات بطيئة، وعينيه السوداء

في عيني وكأنها تبتسم لي، أو يتلذذ بتعذيبي وهو يراني ارتعش خوفًا وان قلبي بدأ اعلانه الرسمي برفضه البقاء في جسدي وبدأ يهرول بداخلي حتى فقد الأمل وبدأ في الهدوء والهدوء ثم الهدوء، وهنا شعرت بأن عيني تهوى مع رأسي لاسقط معهما في بحر من الظلام.
هل علمت يومًا ما معنى المسئولية؟ ماذا تعني تلك الكلمة بشكلٍ عملي؟ لقد علمت معناها مضطرًا الأيام السابقة وهي عبارة أن تكون مسئول عن عمل أو مهمة وتحمل على عاتقك أن تنجزها في وقت محدد وبشكلٍ محدد، وينص قوانينها على جدار عقلك من يجبرك عليها، أعلم أنكم بالتأكيد تعلقون حول أعناقكم طوق المسئولية مثلي تمامًا، ولكن هل المسئولية فرضًا واجبارًا أم طواعية واختيارًا؟ أعلم أنكم سوف تجيبون بأنها في ظاهرها اختيارًا وفي باطنها اجبارًا، فهي تعتبر ميزان لصلابة الأشخاص عند البعض، ومقياس لنضج الأشخاص عند البعض الأخر، ولكن مع هذين المقياسين يجب أن تُحدد بعمر معين رغم أنهم يقولون عادة إنها تأول للكبير، والكبير هنا لا أعلم هل تعني الكبير في أعين الناس؟ أم في عين والديه؟ لأن والداي يروني كبيرًا ودائمًا تنغرس تلك الكلمة اللعينة في حديثهما معي "لا تفعل هذا لأنك الكبير"، "لا تقل تلك الكلمة فأنت الكبير"، "لا تصيح بصوت عالٍ فأنت قدوة أنت الكبير" هل لأني الأخ الأكبر لأخي الصغير هكذا أصبحت كبيرًا؟ كيف وأنا طفلًا لم يتعدى عمري حتى عامه السادس، فكيف

يجعلوني مسئولًا عن أخي الصغير الذي عمره أربعة أعوام، ويقولان لي بابتسامة بريئة لا تشعر بأي ذنب قد اقترفه صاحبها:

-أجعل أخيك في نصب عينيك وراقبه جيدًا ولا تغفل عنه، فأنت أخيه الكبير، وهو في حمايتك ومسئوليتك حتى نعود يا بطل.

ثم يقبلاني ويضماني بحضنهما الذي يخدعني بملمسه الدافئ، ثم أنصت لكلمات والدتي في أذني وهي تقول بأنفاس دافئة:

-لن نغيب عنك يا حبيبي أكثر من أربع ساعات ننهي العمل ونعود لك مُسرعين.

ثم تمسك بأخي الذي لا تهدأ عضلات جسده الصغيرة من الحركة والتي عادة تنتهي بنكزي وضربي في كل جسدي مداعبًا أياي على ما يظن، ثم تدفع أخي في حضني وهي تقول بفخر لا أعلم من أين استلهمته :

-إنه في حمايتك لأنك بطله وبطلنا نحن أيضًا يا حبيبي.

يغادران ويتركاني بلا مبالاة أو اظهار أي اهتمام بي أو بمخاوفي، كيف يتجاهلون خوفي من الفئران هذا الحيوان البغيض المشعر الذي يبحث عن لحم أقدامي كي ينهشها بأنيابه أو يسير على جسدي بأقدامه المقززة، أو خوفي من الحشرات الطائرة التي تريد أن تنقر رأسي وتسكن هي وأطفالها المرعبين بها، أو رعبي من الأماكن المظلمة التي تتستر تحت غطائها الأسود فلا أرى أو أشعر بالكيان الدافئ

الذي يريد أن يأخذني معه في عالم الظلام بلا رجعة، أو خوفي من رؤية الدماء أمامي فكان يكفيني كي أبغضها وأخاف منها أن أرى والدي وهو ينحر كبش العيد ويتطاير دمائه الساخن على وجهي وانا اقفز أمامه عدة مرات بجنون وتصلب صارخًا في هلع ثم أغيب في بحر ظلامي عدة دقائق، وأنا لا أعلم هل بللت سروالي ام لا، فما أجده من أبي بعد ان اعود للواقع مرة أخرى إلا أن ينظر لي ساخرًا وهو يقول:

-لا يصح هذا يا بني الكبير أنت رجل، والرجل لا يصرخ مثل الفتيات ولا يخشى دماء الأضحية، أنت رجل ويجب أن تتحمل أكثر من ذلك، فقريبًا سوف تكون أنت من تنحر الأضحية مثلي تمامًا، فلا تنسى أنت بطلنا.

كم أردت أن أصرخ فيه واقول له دون خوف:

-أنا لست كبيرًا يا أبي، وليست رؤية الدماء بطولة قط.

ولكن كانت شجاعتي حدها حد البلعوم لا تعبره فتتفوه باي حرف مما أريد أن أفصح به، فكان الصمت هو صوتي الدائم، فكيف أصرخ فيه وأنا بطله أو هذا ما يظنه فيه.

لحظات من مغادرة والداي وبدأ أخي في نشاطه الثائرأو كما يدعي والداي أنها مجرد شقاوة أطفال ليس إلا، فأنا لا أعلم عما يفعله هذا من الطفولة في شيء فلقد كنت في طفولتي هادئ الطباع سَكين المجلس، وهو على النقيض تمامًا يريد أن يقوم بكل شيء وفي أي مكان وبلا وقت محدد وبلا اي قيود او أحترام لمقدسات والدتي الثمينة من أطباق

أثرية وأدوات زينة وما يشبه ذلك من محرمات اللمس، أو إلى مقدسات والدي من أوراق العمل وعلب سجائره وهاتفه المحمول وأدواته الخاصة، لا استطيع أن اسكن في مكان بضع دقائق قليلة إلا وأسرع وأجري خلفه أحاول أن ألملم شتات ثورته التي تأثرت بها محتويات المطبخ، حتى أنه فاجئني وعلى حين غرة وحاول منعي وهو مشهر أمامي سكين والدتي التي تقطع به ما يتبقى من أضحية العيد، سكين حاد الملمس لامع النصل، يلوح به أمامي مبتسمًا وكأنه ممسك بقطعة حلوى تارة لليمين وتارة لليسار، حاولت أمتلك بعض الشجاعة الهاربة وصحت فيه قائلًا:

-أترك تلك السكينة فورًا وإلا سوف أخبر والدتي أنك عبثت بأدوات المطبخ ويكفي أن يعلم والدي أنك أشهرت السكين في وجهي حينها سوف تحصل على عقابين وليس عقاب واحد.

كنت أتصور ان ما قلته قد يرضخه قليلًا وينصت لأمري وفي ثوان يلقي بالسكين أرضًا أو يعيدها مكانها في حافظة السكاكين الخشبية، ولكنه لم يفعل اي منهما بل نظر لي متحديًا وفرد ذراعه نحوي ليقترب نصل السكين اكثر من وجهي، ولكن كان خلف هذا السكين نظرة يكسوها التحدي، لا أنكر إنها اخافتني كثيرًا مما جعلني غصب عني أرفع يدي باسطًا كفي مستسلمًا أمامه وكأنني ألعب معه وهو يشهر في وجهي المسدس مؤديًا دور الضابط واكون حينها

أنا كالعادة اللص فما أرفع يدي هكذا معلنًا استسلامي بيقفز فرحًا معلنًا فوزه وانتصاره علي وتنتهي اللعبة حينها.
هذا كل ما جاء في خاطري حينها أن استسلم له لعله يهدئ قليلًا وبالفعل لانت عضلات وجه الغاضب بعض الشيء، ولَوّح بيده الممسكة السكين في الهواء مرتين بسرعة ثم وضعه على سطح طاولة المطبخ، وفي أثناء ذلك أستطعت أن ألتقط أنفاسي الحمدلله ولكن ما لاحظته من عينيه المتسعة ووجه المتفاجئ ناظرًا لي وهو يرجع للخلف خطوتان متقهقرًا في خوف، فما فعله ازاد من الريبة في قلبي مما دفعني أن إلتفت ببطء للخلف متوجسًا وأحبالي الصوتية في أتم الأستعداد لكي تطلق صرختها في أي وقت، إلتفت بهدوء لأرى ما أفزع اخي بهذا الشكل، وكانت المفاجئة انني لم أجد أي شيء يدعو للفزع من الأساس، وكل شيء طبيعي وفي موضعه، فأدركت حينها إنها أحد حيله الماكرة التي يفعلها معي دائمًا وأقع فريسة لخداعه كل مرة ولكن تلك المرة كشفتها مبكرًا، فعدت مبتسمًا في فخر لأجده اشتد خوفه أكثر وأنكمش في اخر المطبخ واضعًا اصابع يده داخل فمه وكأنه سوف يصدر صرخة كبيرة، ومازال يحدق فيّ بعين مرتعشة حزينة، حينها سمعت صوت طرقة بسيطة أسفلي، فطأطأت رأسي في هدوء لأجد قطرات من الدماء تسقط ببطء من يدي التي أرتسم فيها جرح قطعيًا في منتصف راحة يدي، أستطاع أن يلوّن كفي وجزء من ذراعي باللون الأحمر، ما أن رأيته حتى قفزت

صارخًا متصلبًا وشاركني اخي حينها في صراخ وكانت اخر ما سمعته قبل أن أغرق في الظلام.
لم أعرف كم لبست في بحر الظلام حتى رَسيت على شاطئ الواقع وفتحت عيني لأرى سقف المطبخ وأنا ممدد على الارض وجانبي الأيمن احتفل مع يدي باكتساءه اللون الأحمر بسبب نزيف يدي بالدم الساخن، فنهضت مفزوعًا من مكاني لا أعرف ماذا أفعل؟ كيف اوقف هذا النزيف؟ كيف ينتهي هذا الرعب؟ غصب عني قذفت الدموع من عيني خوفًا وألمًا لترطب وجنَتي التي أتسخت بالدماء هي أيضًا بسبب سقطتي السابقة، أتحرك بخطوات ترتجف تحتي لا أستطع أن أنهرها عما تفعله، فيكفي إنها تحملني في تلك اللحظات الصعبة، ثوان وانتبهت لعدم وجود أخي فوقفت متصلبًا انده عليه وأصيح فيه متوسلًا المساعدة ولكنه لم يجيب علي، كررت ندائي عدة مرات وكان الرد هو الصمت، لا أنكر فلقد صرخ قلبي قلقًا وزادت دقاته بشكل إنتفضت عظام صدري من أثرها، دفعت جسدي لكي يتحرك في توتر باحثًا عن أخي، وأنا أحاول أن أتحاشى ما بي وألا تسقط عيني مجبرًا على جرح يدي الذي يفضحه صوت قطرات الدم المتساقطة منه على الأرض أكثر من الألم الذي اشعر به، أستمريت في بحثي وندائي وأستمر أيضًا الصمت لا من مجيب ولا رد، حتى وصلت لغرفة أخي والتي تقع في نهاية ممر الغرف، ورأيت الباب مفتوحًا بعض الشيء ولكني تفاجئت قبل دخولي بأن السلم الصغير

الذي تستخدمه والدتي في جلب الاشياء المُخزنة بالرفوف العليا بالمنزل، أنه لقد وضع بجانب خزانة الملابس الصغيرة والتي تقع بجوار الباب، وهذا ليس له سوى معنى واحد أن أخي لجئ لمخبئه السري، والذي يقع فوق خزانة الملابس الخاصة، وهو يلجئ له عندما يقوم بفعلًا خاطئ ويدرك أنه يستحق عليه العقوبة فيهرول له مختبئ فيه من عقاب والدتي والتي بدورها تسامحه في مقابل أن ينزل من فوق حتى لا يقع ويصيبه مكروه، وبالتأكيد ما فعله بي من مهاجمتي بالسكين وجرح يدي وبعد رؤية نزيف دمي أيقن أن العقاب سوف يكون شديد بشكل كبير، لن تَخيل علي ألاعيبك ثانيًا، فأنت تستحق العقاب لا مُحالة، أمسكت مقبض الباب بيد تحمل بعض من الشجاعة وبعض من بالدماء وأنا أقول محذرًا:

-لقد علمت اين أنت ولن تهرب من..

ما رأيته جعل لساني يشارك عضلات جسدي التصلب، فلم ولن اكن أتوقع ما رأيته أمامي، فلقد وجدت أخي مفترش الأرض رأسه تستند على أحد أذرع الفراش والذي تلون بخط من الدماء يبدأ من أعلى الذراع حتى أسفله، وينتهي بجوار رأس أخي التي إنفجرت بالدماء وكأنها عين زمزم، لتغرق لعبه الصغيرة التي تتناثر من حوله، مشهد رأسه اللامعة بلون الدماء أثار بحر ظلامي الداخلي لكي أغرق فيه مرة أخرى.

رسيت مرة أخرى لنور الواقع وفتحت عيني لأجدني ممدد بجانب أخي اشعر ببرودة في كل خلية بجسدي، أختلط دمي النازف من يدي بدماء أخي، حاولت أن أنده عليه أصيح فيه ببعض مما تبقي لي من قوة ولكنه لم يجيب ندائي لأ اعرف ماذا أفعل له ولي؟ وكف لي أن اعرف من الأساس؟ لا استطيع الأقتراب منه؟ ماذا أفعل يا من جعلتموني بطلًا؟ اين أنتم الأن؟ في تلك اللحظة تذكرت الهاتف أستندت على يدي السليمة في هوان مجبرًا عليه ونهضت ذاهبًا للهاتف وهو بالغرفة المقابلة لغرفة أخي وهي غرفة والداي، وما أن وصلت له حتى طلبت رقم والدتي التي جاهدت معي كثيرًا من قبل كي أحفظه عن ظهر قلب ليكون لي المُعين عندما احتاجه، ولكنها لم تكن تتخيل أن يكون هو العون الوحيد في هذه الفاجعة، ما أن ردت علي متسائلة في قلق:

-ماذا حدث يا بطلي؟

قلت وقد سبقتني الدموع والنحيب والرجفة:

-نزيف .. يدي .. دماء .. أخي.

خانني لساني وأرتعش في تذبذب لتخرج كلماتي بتلك الطريقة حتى أستطعت أن أقول جملة قصيرة:

-بطلك يحتاج للمساعدة.

شعرت بعدها أن رأسي تدور أو ما حولي هو ما يدور وسقط الهاتف من يدي، فتصارعت من هذا الدوران حتى خرجت من غرفة والداي وذهبت لغرفة أخي، الذي ما أن دنوت منه حتى سمعت صوت رفيع ولكن يقشعر جسدي له

فألتفت نحو مصدر الصوت لأجد فأرًا كبير منظره مقزز بشكلًا مريع، أستباح غرفة أخي ليتحرك فيها كما يشاء فلم يراعي حرمة دماء أخي أو حرمة خوفي وفزعي منه، حاولت أن أعود أدراجي لكن هذا الفأر اللعين سبقني نحو الباب وبدأ في البحث عن فريسته، فما كان مني إلا أني تقوقعت على نفسي وتقهقرت للخلف ببطء شديد دون أن ألتفت للخلف بظهري حتى لا يشعر بي ويباغتني ويهاجمني بأقدامه الرثة وأنيابه الحادة وأختبئت أسفل نافذة الغرفة وتسترت خلف شرشفها الداكن قبل أن أغرق مرة أخرى في بحر ظلامي الذي ألفته كثيرًا حتى اصبح ملجئي الأبدي.
أنا الأن أجلس على الفراش وحولي والدتي تنظر لي بوجه مبتسم وعين دامعة، ووالدي يُربت على كتفها بحنو وعينه تحبس دمعة بداخلها فضحتها لمعتها، ومن الناحية المقابلة وقف أخي بندبة على رقبته تُلفت كل من ينظر له دون تدقيق أو فحص فهي كبيرة وواضحة، يقف شبه مبتسمًا وهو يحمل كعكة عيد الميلاد فهم يحتفلون معي بعيد ميلادي الرابع والعشرون بالمصحة العلاجية التي أسكن فيها منذ ثماني عشر عامًا، فلقد اصيبت بسبب ما حدث يوم حادثة أخي بشلل دماغي من فرط الصدمة أفقدني الحركة والنطق وباقي الحواس الأنسانية، ولم يبقى لي سوى بعض الأدراك الطفيف وعين تفتح أحيانًا لتعيش الواقع بضعة ساعات قليلة، ثم أغفو في غيبوبتي أو كما احب أن أسميها "بحر الظلام" وأعيش فيه خيالي وذكرياتي وبطولاتي، فما رأيك

يا ضيفي في تلك الرحلة ألم يعجبك بحر ظلامي؟ كم هذا البحر مليئ بالبطولات التي تنتظرنا، يجب أن تستمتع معي بعظمة هذا البحر وتأتي معي مرة أخرى، فهنا فقط تستطيع أن تعيش البطولة وتقوم بها بعيدًا عن كذب الواقع، فهو أكبر صدمة قد تأتيك في حياتك، والصدمة عندما تأتي لا تطرق بابك بل تأتي كالطوفان الذي لن يمنعه ألف باب، تذكر هذا جيدًا ضيفي العزيز، ولكني مع كل هذا أيقنت شيئًا مميزًا فيّ، أيقنت أخيرًا أنني لست بطلًا ولم ولن أكن بطلًا قط".

****

تمت بحمدالله